كلية : الآداب

القسم او الفرع : اللغة العربية

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.م.د. نهاد فخري محمود

اسم المادة باللغة العربية : النقد الأدبي القديم

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Old Criticism

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربية: ابن طباطبا وعملية الإبداع الشعري

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية: Poetic creativity of Ibn Tabateba

مقرر الفصل الثاني

ابن طباطبا وعملية الإبداع الشعري(ت ٣٢٢هـ)

يعد كتاب (عيار الشعر) لكاتبه محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي من الكتب النقدية المهمة التي شقت طريقها في تاريخ النقد العربي، رسم فيه ملامح واضحه للنظرية النقدية المتعلقة بمفهوم الشعر وقواعده وأصوله مما يُمكّن الشاعر والناقد معا من الوصول الى المستوى الجيد في معرفة الأشعار ونظمها متعمداً على ما استمده واستخلصه من دراسات السابقين من علماء الشعر .

تعريف الشعر وأدواته:

عرّف ابن طباطبا الشعر بأنه: " **كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم بما خصّ به من النظم الذي ان عدل عن جهته مجّته الأسماع وفسد على الذوق**"

نلاحظ أنَّه اختار لفظة النظم وهي أكثر شمولاً لأنها تضم القوافي والوزن والموسيقى الداخلية للبيت في تفعيلاته المختلفة، وبذا جعل شرط توافر النظم أساساً في تعريف الشعر لارتباطه بالذوق والإسماع، وما اعتادت العرب على تسميته شعراً في اطار الإبداع الذي يشمل النثر والشعر .

وعند النظر في تعريف الشعر الذي وضعه معاصره قدامة بن جعفر (كلام موزون مقفّى) نلحظ ان ابن طباطبا في تعريفه عدل إلى مصطلح النظم –كما تقدّم– بدلاً من الوزن والقافية وهو مصطلح له أبعاده المرتبطة بتفسير إعجاز القران، وبأرقى درجات البلاغة التي تنفصل عن الذوق، فمن اضطرب عليه الذوق إذن لم يستطع تصحيح الشعر وتقويمه بمعرفة العروض أو الحذق به إلا إذا تحولت المعرفة المستفادة إلى شيء كالطبع الذي لا تكلف معه .

كما أنه يظهر تجربته الشعرية في هذا التعريف الذي خرج به الإطار الشكلي الذي حدّ الشعر بالكلام الموزون المقفى فخرج به عمّا عرّفه به قدامة حين خرج عن حقيقته إلى مظهره وشكله .

أدوات الشعر:

أما أدوات الشعر فقد تحدث عنها ابن طباطبا حديث عارف بمعاناة الشاعر وما يحتاج اليه من أدوات تعين موهبته الشعرية وطبعه الصحيح لذا نجده يقول: "وللشعر أدوات يجب إعدادها قبل مراسه وتكلف نظمه، فمن تعصت عليه أداة من أدواته لم يكمل له ما تكلفه منه، وبان الخلل في نظمه ولحقته العيوب من كل جهة" وإذ بحثنا في الأدوات التي يعددها ابن طباطبا ويرى شرط توافرها للشاعر وجدناها متمثلة بما يمكن أن نسميه بثقافة الشاعر ومنها:

١- التوسع في اللغة .
٢- البراعة في فهم الإعراب .
٣- الرواية لفنون الآداب .
٤- المعرفة بأيام العرب وأنسابهم ومناقبهم ومثالبهم .

هذه المعارف تشكل أهم مصادر الثقافة لجميع الشعراء والمتأدبين، وأضاف ابن طباطبا الى هذه المعارف معرفة أخرى هي وجوب رواية فنون الآداب شعراً ونثراً والاطلاع على طرائق الأدباء في التعبير وأساليبهم في الأوصاف شعراً وقصصاً وأمثالاً ورسائل؛ لأن هذا الاطلاع يدل على مواطن الجمال في أذواق الناس المتأدبين ويدل على سبيل الارتقاء بالفن الشعري .

ويضيف الى هذه الأدوات عنصر العقل؛ لأنه الذي يستطيع أن يميز الأدوات السابقة، لذا فهو الذي يميز الأضداد فبالعقل ولزوم العدل يستطيع الشاعر أن يتبين إيثار الحسن واجتناب القبيح ووضع الأشياء موضعها.

مهمة الشاعر:

إنّ مهمة الشاعر في نظره تفيد وجوب توخي الشاعر الصدق المرادف للحسن، وتجنب القبيح المرادف للباطل، وبذا يكون الشعر الجيد هو الذي: "يلتذ الفهم الحسن بحسن معانيه كالتذاذ السمع بمونق لفظه "

إنّ إعجاب ابن طباطبا بالشعر القديم وجعله القدوة الحسنة نفهم منه الإعجاب بالجانب الاخلاقي الذي تمثل بالقيم الخلقية الرفيعة التي أودعها الشعراء أشعارهم وخلدوا فيها الحياة العربية بمثلها وأمجادها فسجلوا محمود الأخلاق ومذمومها في رخائها وشدتها ورضاها وغضبها وفرحها وغمها وأمنها وخوفها وصحتها وسقمها والحالات المتصرفة في خلقها وان شعراء العرب القدماء كانوا صادقين فيما سجلوه من هذه القيم المحمودة والاخلاق الحميدة .

وهناك مهمة أخرى وضحها ابن طباطبا تتمثل في قدرة الشاعر في التعبير عن هواجس النفس وكوامن العقول، فيحسن العبارة عنها وإظهار ما يكمن في الضمائر منها، فيبتهج السامع لما يرد عليه مما قد عرفه طبعه وقبله فهمه، فيثار بذلك ما كان دفينا، ويبرز ما كان مكنوناً فينكشف للفهم غطاؤه فيتمكن من وجدانه بعد العناء في نشدانه.

عملية الإبداع الشعري:

تجد في عيار الشعر أول مرة ناقداً وباحثاً يتناول عملية الإبداع الفني للقصيدة العربية بتتبع المراحل التي يخطوها الشاعر ابتداءً من وضعه الفكرة التي تستدعي قول الشاعر وحتى استوائها قصيدة شعرية متكاملة.

فالشعر عند ابن طباطبا نتاج فكري هو والنثر يدوران في إطار الموهبة الواحدة والإبداع الفني الصادر عن وعي عقلي وإرادة متمكنة ونستطيع أن نقسّم مراحل نظم القصيدة في رأي ابن طباطبا إلى ما يأتي:

١-مرحلة كونها فكرة مجردة (نثراً)

٢-تشكيل الفكرة النثرية بقوالب الشعر وألفاظه وقوافيه.

٣-التسلسل في الأبيات وتلاحمها.

٤-التهذيب وإعادة النظر في القصيدة

١-الفكرة نثراً:-

يرى ابن طباطبا أنّ أول مراحل إبداع القصيدة هو كونها فكرة تجول في الخاطر نثراً "فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكرة نثراً".

إنّ الخطوة الأولى من عملية الإبداع راجعة إلى ما ذهب إليه من أن العقل هو جمّاع الأدوات الشعرية؛ لأنه يبدأ مع العملية الشعرية من الخطوة الأولى حتى استوائها قصيدة متكاملة، فيكون الشاعر واعياً لكمال عقله حين يخطو الخطوة الأولى في التفكير بالمعنى الذي يريد الشاعر إقامة القصيدة عليه فنظم القصيدة لا يرد عفو الخاطر ولا في لحظة إلهام لا صلة للوعي بها أو لا سيطرة للعقل عليها، وإنما يكون العقل مالكاً لزمام الأمر منذ الخطوة الأولى في عملية الإبداع الشعري، وجدل كبير في توظيف العقل، إذ إنَّ الابداع الشعري نابع من الإلهام أو اللاشعور، ومسألة الالهام قديمة، ثم يأتي العقل في مرحلة لاحقة عند إعادة النظر والتهذيب.

٢- تشكيل الفكرة النثرية بقوالب الشعر:

أما المرحلة الثانية لعملية الإبداع الشعري هي أن ينظم الشاعر ما جال في ذهنه نثراً فينظمه بألفاظ ملائمة للمعاني يصبها كلها في قوالب الشعر على أن يفكر بالوزن الذي يختاره والقافية التي يجب أن تكون ملائمة للمعنى وهو هنا لا يفترض أن تكون القصيدة مرة واحدة أو في مراحل متعددة تنثال فيها المعاني انثيالاً يجعل أبياتها متسلسلة بوحي من اللحظات الشعرية التي يعيشها الشاعر؛ وإنما يفترض أن يكون الشاعر مسيطراً سيطرة تامة على أفكاره التي ينظمها شعراً من دون أن يقيد ذهنه بشكل القصيدة أو وحدتها الموضوعية.

٣-تسلسل الأبيات وتلاحمها:

في هذه المرحلة يخطو الشاعر بقصيدته خطوة أخرى، إذ استطاع ان ينظم المعنى الذي دار في ذهنه شعراً ووضعه في قالب القصيدة الذي اختاره فانتظم في أبيات متفرقة يجمعها وزن واحد وقافية واحدة.

وبعد أن نظم الشاعر كل ما أراد من معانٍ، فيعمد إلى إعادة تنظيم أبيات القصيدة وترتيبها، وتعد هذه العملية المرحلة الأولى في التهذيب الشعري، وفي نظر ابن طباطبا أن الشاعر يلجأ في هذه المرحلة إلى تلبية شرط الإجادة في القصيدة العربية.

٤-إعادة النظر والتهذيب:

بعد أن تتخذ القصيدة شكلها الأول يقف الشاعر عندها وقفة طويلة يُظهر فيها خبرته وثقافته العامة، وحصيلته اللغوية والشعرية، إذ يعمد إلى إعادة النظر فيها متأملاً ألفاظها وقوافيها فيلجأ إلى تغيير اللفظة الثقيلة المستكرهة بالسهلة النقية.

أما القوافي فإن إعادة النظر فيها واجب أيضاً لتكون موافقة لمعاني الشاعر وهنا ينبهنا ابن طباطبا إلى أنّ القوافي ليست قوالب شكلية فحسب، بل هي صدى موسيقي لابد أن ينسجم مع المعنى الذي يريده الشاعر.

وله في إعادة النظر والتهذيب تطبيقات في آخر كتابه في فصل سمّاه "تأليف الشعر" ذكر فيه شواهد الشعر القديم فيقول: "وربما اتفق للشاعر بيتان يضع مصراع كل واحد منهما موضع الآخر فلا ينتبه إلى ذلك إلا من دقَّ نظره ولطف فهمه" ويعزو بعض الخلل إلى الرواة والناقلين له، وضرب مثلاً لذلك قول أمريء القيس:

كـــأني لـــم أركـــب جـــواداً للـــذة ولـــم أتـــبطن كاعبـــاً ذات خلخـــال

ولـــم أســـبأ الـــزق الـــروي ولـــم أقـــل لخيلـــي كـــرّي كـــرةً بعـــد إجفـــال

يقول: هكذا الرواية وهما بيتان حسنان، ولو وضع مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر كان أشكل وأدخل في استواء النسيج، فيكونان:

كـــأني لـــم أركـــب جـــواداً ولـــم أقـــل لخيلـــي كـــرّي كـــرة بعـــد إجفـــالِ

ولـــم أســـبأ الـــزق الـــروي للـــذة ولـــم أتـــبطن كاعبـــاً ذات خلخـــالِ

ويبدو أنّ ابن طباطبا ليس من أنصار مدرسة الصنعة والتهذيب فحسب؛ وإنما مُقرٌ بوجوب اخضاع القصيدة إلى إعادة النظر وتهذيب الألفاظ والقوافي حتى تستقيم جميع أبياتها جودة وجمالاً فنياً.